من عبث النحاة

التعجب

للاستاذ كمال بسيونى

(مهداة إلى صاحب إحياء النحو الأستاذ الصديق
ابراهيم بك مصطفى عميد كلية دار العلوم)

فى الحق أن النحاة يكلفون أنفسهم شططا ويرهقونها عسرا حينما يريدون أن يحللوا كل شىء ، فلا ينتهى بهم التحليل والتعليل إلى التعريف والتقريب ، وإنما ينتهى بهم إلى التجهيل والتضليل .

ولم أر النحاة قد ضلوا فى باب من أبواب النحو ضلالهم فى باب التعجب . وأكون مقررا للواقع حين أقول : إن واحدا منهم لم يفهم من قريب أو بعيد صيغتى التعجب ، ولم يتصل بهما بسبب ظاهر أو خفى . وليس ذلك لأن صيغتى التعجب صيغتان عميقتان تدقان على الأفهام ، أو تستعصيان على العقول ، وإنما لأن هاتين الصيغتين لم تخضعا للقواعد التى أثبتها النحاة وقرروها ، والنحاة لا يطيقون أن يروا شيئا فى اللغة العربية لا يخضع لقواعدهم وقوانينهم ، لأنهم لم يضعوا قواعدهم وقوانينهم لتهمل وتنبذ ، وإنما وضعوها لتطبق وتنفذ ، وإذن فليخترقوا كل طريق ، وليشقوا كل سبيل ، حتى يخضعوا الجامح ويذللوا النافر ، فان جادوا بعد هذا كله بما يحزن طورا ، ويضحك طورا آخر ، فليس الذنب ذنبك أنت لأنك لم تفهم ما قالوا ، أو لأنك لم تؤت هذه القريحة النفاذة التى تستطيع بها أن تستسيغ هذا الغثاء ، وأن تفهم هذا الهراء

رأى النحاة هاتين الصيغتين فى اللغة العربية « ما أجمل الورد ، وأجمل بالورد » ولا أريد بادىء ذى بدء أن أفزعك بما قال النحاة فيها ، وإنما أريد أن أسألك أنت عما تفهم إذا قلت لك — ونحن سائران فى الحديقة — « ما أجمل الورد » أو قلت لك « أجمل بالورد » ستفهم من غير شك أنى أريد أن أقول لك : إن الورد جميل جداً ، وستلمح من كلامى أنى معجب بجمال الورد ، لا متعجب من جماله ، فجمال الورد لا يثير تعجبى لأنه ليس أمرا غريبا ، وإنما يثير اعجابى ، لأنه فاتن خلاب .

ولا تظن أنى أريد من هذا أن أسمى باب التعجب باب الاعجاب ، وإلا فماذا تقول إذا قلت ما أقبح الشر ، أو أقبح بالشر ؟ أتظن أنى معجب بقبح الشر أو متعجب من قبحه ؟ كلا ، فما أنا معجب ولا أنا متعجب لأن قبح الشر لا يثير عجبا ولا تعجبا ، وإنما هو أمر طبيعى ؛ ولكنك ستفهم من غير ما شك أنى أريد أن أقول إن الشر قبيح جداً ، وستلمح من كلامى أنى ساخط عليه مشمئز منه .

ولا تقل : إن الأمر لا يخلو من إعجاب أو اشمئزاز ، فلا مناص لك من أن تسمى باب التعجب باب الاعجاب والاشمئزاز ، وإلا فماذا تقول فى قولى لك : ما أكثر الورد فى الربيع وما أعظم النزهة فى الحدائق ، وأنا لم أقصد إلى إعجاب ولا اشمئزاز ، ولم أقصد فى الوقت نفسه إلى تعجب ، وإنما أقصد إلى أن الورد فى الربيع كثير جدا ، وأن النزهة فى الحدائق عظيمة جدا .

وأظنك قد لمحت من هذا كله أن هاتين الصيغتين إنما تدلان على الكثرة والمبالغة ، فالورد جميل جدا ، والشر قبيح جدا ، والورد فى الربيع كثير جدا ، والنزهة فى الحدائق عظيمة جدا ، وعلى هذا النحو . وأظن أنى وفقت فى هذا الكلام إلى أن أنبهك إلى أن تسمية هذا الباب بباب التعجب تسمية غير سديدة ، وأظنك أيضا قد لمحت من هذا الكلام معنى هاتين الصيغتين .

واسمع بعد هذا ما يقول النحاة فى معناها ، وتمالك نفسك أن تقهقه ، واكظم الضحك فى قلبك أن ينفجر .

لم يتفق النحاة على معنى « ما أجمل الورد » والعجب أنهم بعد اختلافهم هذا لم يفهموا معنى هذه الجملة ، ولم يمنعهم من فهمها إلا أنهم أرادوا أن يطبقوا عليها القواعد النحوية التى وضعوها .

لقد اتفقوا على اسمية « ما » وابتدائيتها ، ثم اختلفوا : فقال الفريق الأول إن « ما » فى ما أجمل الورد نكرة تامة بمعنى شىء والجملة بعدها خبر ، والتقدير شىء أجمل الورد أى جعله جميلا . وقال الفريق الثانى : إن « ما » استفهامية مشوبة بتعجب ، وما بعدها خبر أيضا ، والتقدير أى شىء أجمل الورد ؟ وقال الفريق الثالث : « ما » معرفة ناقصة أى اسم موصول بمعنى الذى

والجملة بعدها صلة والخبر محذوف» والتقدير الذى أجل الورد شىء عظيم . وقال الفريق الرابع : « ما » نكرة ناقصة والجملة بعدها صفة والخبر محذوف أيضا والتقدير شىء أجل الورد عظيم ، هذا ولم أتجاوز « ما » إلى « أجل الورد » .

واختلفوا أيضا فى «أجل الورد» فقال بعضهم : إن «أجل» فعل للزومه مع ياء المتكلم نون الوقاية نحو ما أفقرنى إلى عفو الله ، ففتحته فتحة بناء كالفتحة فى نحو على أكرم محمدا ، « والورد » مفعول به . وقال الفريق الآخر إن « أجـل اسم لجيئه مصغرا فى نحو قول الشاعر «يا ما أميلح غزلانا شدن لنا» ففتحته فتحة إعراب كالفتحة فى نحو «على عندك» « والورد » مشبه بالمفعول به لوقوعه بعـد ما يشبه الفعل فى الصورة .

هذا ما قاله النحاة فى « ما أجل الورد » فإذا كنت قد فهمت من هذا الكلام كله معنى هذه الجملة فأنت موفق سعيد ، أما أنا فلم أفهم من هذا الكلام إلا أنه لغو من القول يجب أن تنزه عنه الأسماع والعقول تنزيها .

أما ما قاله النحاة فى « أجل بالورد » فقد اتفقوا على فعلية أجـل ، ثم اختلفوا فقال بعضهم لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر ، وهو فى الأصل فعل ماض على صيغة أفعل بمعنى صار ذا كذا ، فأصل « أجل بالورد » أجل الورد أى صـار ذا جمال ثم نقل إلى إنشاء التعجب فغيرت الصيغة من الماضى إلى الأمر ليكون بصورة الإنشاء ، ثم زيدت الباء فى الفاعل ، وعلى هذا فأجل مبنى على فتحة مقدرة منع من ظهورها مجيئه على صورة الأمر ، وقال البعض الآخر « أجل » لفظه ومعناه الأمر ، وفيه ضمير مستتر مرفوع على الفاعلية والباء للتعدية داخلة على المفعول به ، ثم اختلفوا فى مرجع الضمير المستتر فقيل الضمير للجمال المدلول عليه بأجل ، وقيل الضمير للمخاطب .

أرأيت إلى أنى لم أكن مخطئا حين خفت عليك أن تضحك أو أن تقهقه حين تسمع هذا الكلام — أستغفر الله — وكنت خليقا أن تحزن وأن تتألم حين تعلم أن شيوخ النحو فى مصر ما زالوا يلوكون هذه السخافات ، وما زالوا يخدعون الطلاب بهذا الدجل العلمى ، وما زالوا يفسدون العقول والأذواق ، ويميتون الملكات الأدبيـة فى نفوس الشباب ، وما أسرع ما ينخدع الشباب بهذا التخريف ، فيظن حين يملك هـذه الألفاظ أنه قد فهم قواعد العربية ، وهو لم يفهم إلا قواعد الجهل إن كان للجهل قواعد يتسنى للمرء أن يفهمها .

إن من يريد أن يدرس قواعد اللغة العربية يجب أن يستلهم الذوق العربى والبيان العربى حين يدرس هـذه القواعد ، لا أن يستلهم القواعد ويحكمها فى الذوق والبيان العربيين . ومن ذا يستطيع أن يقول إن معنى « ما أجل الورد » شىء أجل الورد أو أى شىء أجل الورد ؟ أو الذى أجل الورد شىء عظيم أو شىء أجل الورد عظيم — من ذا يستطيع أن يقول هذا ؟ ماضر هؤلاء القوم لو فهموا الأساليب العربية أولا ثم حاولوا على ضوء هذا الفهم أن يطبقوا ما شاءوا من القواعد بشرط أن تكون هذه القواعد موضحة المعنى المقصود لا مخفية له ، فأنا لا أفهم إلا أن «الورد» فى كل من المثالين السابقين مسند إليه ، وكل من « ما أجل » فى المثال الأول وأجل فى المثال الثانى بمعنى جميل جدا مسند ، أما كيف نعرب « ما » وهل أجل اسم أو فعل ، وهل فتحتها فتحة إعراب أو بناء ، وبماذا انتصبت كلمة « الورد » فى المثال الأول وهل « أجل » فى المثال الثانى فعل ماض جاء على صيغة الأمر أو فعل أمر صيغة ومعنى ، وهل الباء داخلة على الفاعل أو الفاعل محذوف والباء للتعدية داخلة على المفعول — كل هذا لا يعنينى أن أعرفه بل لعل من الجهل أن أعرفه إن صح أن تسمى المعرفة جهلا .

إن المقصود من علم النحو إنما هو تقويم اللسان والتحرز من اللحن والخطأ ، وأنا مادمت أنطق هذه الجملة « ما أجل الورد » صحيحة هكذا ، وأعرف معناها سليما أيضاً هكذا فماذا على بعد ذلك ؟

وبعد : فهذا نقد سريع لبعض ما قاله النحاة فى هـذا الباب الذى سموه باب التعجب وهو فى الوقت نفسه نوع جديد من البحث العلمى الصحيح لو تأثره القائمون بأمر النحو فى مصر لكان ذلك إيذانا بانبثاق فجر جديد لقواعد العربية ، ولكانت نهضة نحوية مباركة كهذه النهضة الأدبية المباركة التى تعم مصر الآن .

كمال يوسف